﴿رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ ۖ إِن يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِن يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ ۚ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴿٥٤﴾﴾ [الإسراء: 54]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

الهدايةُ والضَّلالُ بيدِ اللهِ وحدَه

لـمَّا أمر الله سبحانه بقول الكلمة التي هي أحسن؛ جاء في هذه الآية تفسيرها بأن يقولوا لهم هذه الكلمة: ربُّكم أعلم بكم، إن يشأ يرحمكم بالتّوفيق للإيمان، أو إن يشأ يُعذِّبكم بالإماتة على الكفر، وأن يعلِّقوا أمرهم على مشيئة الله تعالى[1].

وبعد أن بيَّن الله أحوال الكافرين، ودعا المؤمنين إلى التزام القولِ الحسن، وحذَّرهم من إغواء الشيطان؛ خاطبَ المُكلَّفين جميعًا بأنَّه مُطَّلع على أعمالهم وأقوالهم ونياتهم[2].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يُعَذِّبْكُمْ﴾: أصله (عذب)، والعين والذَّال والباء أصل صحيحٌ، لكنَّ كلماته لا تكاد تنقاس، واختلف في أصل العذاب؛ فناسٌ يقولون: أصل العذاب الضَّرب، ثم استُعير ذلك في كلِّ شدَّة[3]، وقيل: أصل التَّعْذيبِ إكثارُ الضَّرب بِعَذَبَةِ السَّوطِ؛ أي: طرفها، وقيل: هو من قولهم: ماءٌ عَذَبٌ إذا كان فيه قَذًى وكَدَرٌ، فيكون (عَذَّبْتُهُ)، كقولك: كدَّرتُ عيشَهُ[4]، ومعنى التَّعذيب في الآية: بأن يخذلكم عن الإيمان، فتموتوا على شرككم، فيعذِّبكم يوم القيامة بكفركم به[5].

2) ﴿وَكِيلًا﴾: أصله (وكل)، والواو والكاف واللّام أصلٌ صحيحٌ

(1) الآلوسي، روح المعاني: 8/ 91.
(2) مجمع البحوث الإسلامية، التفسير الوسيط: 768/ 5.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (عذب).
(4) الرّاغب، المُفردات: (عذب).
(5) ابن جرير، جامع البيان: 14/ 624.

يدلُّ على اعتماد غيرك في أمرك، وسُمّي الوكيل؛ لأنَّه يُوكَل إليه الأمر[1]، والوَكيلُ فعيلٌ بمعنى المفعول، قال تعالى: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿٨١﴾﴾ [النّساء: 81]؛ أي: اكتفِ به أن يتولّى أمرك، ويَتَوَكَّلَ لك، وهو المعنى المقصود في الآية؛ إذ لم يجعل اللّه النَّبيَّ وكيلًا عن الكافرين يتولّى أمر هدايتهم، ويُجبرهم على الإيمان، إنَّما عليه البلاغ.

❁ المَعْنى الإِجْماليُّ:

تعليم المؤمنين كيفية الدعوة إلى صراط الله المستقيم

يقول اللّه تعالى للنّاس: ﴿رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْۖ إِن يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ﴾، فيوفِّقكم للإيمان والعمل الصالح، أو إن يشأ يخذلْكم عن الإيمان، ويُمِتْكم على الكفر، فيعذِّبكم، فمثل هذا الكلام ينبغي أن يقولَه المؤمنون للكافرين، لا أن يُصدروا الحُكم عليهم بأنَّهم أهل النار، فيُزعجَ ذلك المشركين، فيتمادَوا في العناد والمكابرة، وما أرسلناك - أيُّها الرسول - عليهم وكيلًا تُدَبِّر أمرهم، وتُجازيهم على أفعالهم، وإنَّما مُهمَّتك تبليغُ ما أُرْسلتَ به، وبيان الصراط المستقيم[2].

وترشد الآيةُ الكريمة إلى أنَّ اللّه تعالى لا يريد للعباد إلّا ما هو خير، ولا يأمرهم إلّا بما فيه المصلحة لهم؛ إذ قد تريدون شيئًا والخير في خلافه، وإلى بيان وظيفة الرسول ﷺ بأنَّه مُبلِّغ عن اللّه ما أمره بتبليغه[3].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

نكتةُ فصلِ الآيةِ عن سابقاتِها:

تخيُّرُ أحسنِ الألفاظِ في مخاطبةِ المشركين

ورد قوله تعالى: ﴿رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْۖ﴾ مفصولًا عن الجملة السابقة؛ لأنَّه استئناف واقع موقع التعليل للأمر بقول الأحسن؛ أي: ربكم - أيها العباد - أعلم بكم، وبما يؤول أمركم إليه من سعادةٍ

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (وكل).
(2) الجزائريُّ، أيسر التفاسير: 3/ 240، ونخبة من العلماء، التّفسير المُيسَّر، ص: 287.
(3) السَّعديُّ، تيسير الكريم الرَّحمن، ص: 460.

وشقاوة، إن يشأ يرحمكم بهدايتكم، أو إن يشأ يُعذِّبكم بإضلالكم، فلا تحتقروا ـ أيها المؤمنون ـ المشركين، فتقطعوا بأنَّهم من أهل النار، فتُعيِّروهم بذلك، فإنَّه يجرُّ إلى الإحَنِ ووَحَرِ الصدور وغيظِ القلوب بلا فائدة؛ لأنَّ الخاتمة مجهولة، ولا تتجاوزوا فيهم ما آمركم به من قول وفعل، فإنَّه الأحسن[1].

فائدة التَّعبير بـ ﴿رَّبُّكُمْ﴾ وسرُّ إضافته:

الـــرَّبُّ أعـلـم بدخائل النُّفوس وقـابـلـيَّـتـهـا للاصطفاء

ورد في قوله تعالى: ﴿رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْۖ إِن يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِن يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْۚ﴾ التَّعبير بلفظ الرُّبوبيَّة مُضافًا إلى ضمير المؤمنين الشّامل للرَّسول؛ تذكيرًا بأنَّ الاصطفاء للخير شأنٌ من معنى الرُّبوبيّة التي هي تدبير شؤون المربوبين بما يليق بحالهم؛ ليكون لإيقاع المُسند على المُسند إليه بعد ذلك بقوله: ﴿أَعْلَمُ بِكُمْۖ﴾ وَقْعٌ بديعٌ؛ لأنَّ الَّذي هو الرَّبُّ، هو الذي يكون أعلم بدخائل النُّفوس وقابليتها للاصطفاء[2].

غرضُ التَّعبير بصيغة المبالغة ﴿أَعْلَمُ﴾:

علمُ اللهِ تعالى المـحـيـطُ بـكـلِّ شيءٍ

جاء في قوله تعالى: ﴿رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْۖ إِن يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِن يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْۚ﴾ التَّعبير باسم التَّفضيل ﴿أَعْلَمُ﴾ الذي يقتضي في اللُّغة المفاضلة في صفة بين اثنيْن، وقد ذهب بعضُ العلماء إلى نفي المُفاضلة، فقال: إنَّ قوله: ﴿أَعْلَمُ﴾ هنا بمعنى: عَليمٍ، نحو قولهم: اللّه أكبر؛ بِمَعْنى: كَبير[3].

وأثبت بعضُهم المفاضلة على بابها، فقال: إنَّ ربَّكم أعلم؛ أيْ: من كلِّ عالمٍ بمَنْ في السموات والأرض منهم ومن غيرهم، بأحوالهم ومقاديرهم وآجالهم وما يستأهل كل واحد منهم؛ لأنَّه هو الذي خلقهم، وفاوت بينهم في أخلاقهم وهيئاتهم[4].

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 11/ 442.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 133.
(3) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 10/ 278.
(4) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 11/ 443.

معنى الباء في قوله: ﴿بِكُمۡۖ﴾:

تعدية أفعل التّفضيل بالحرف

أتى في قوله تعالى: ﴿رَّبُّكُمۡ أَعۡلَمُ بِكُمۡۖ﴾ حرف الجرِّ في ﴿بِكُمۡۖ﴾؛ دالًّا على المُلابسة والتَّعدية؛ وذلك لأنَّ أفعل التفضيل لا ينصب بنفسه مفعولًا به؛ لضعف شبهه بالفعل؛ بل يتعدّى إلى المفعول بـ(الباء) أو بـ(اللّام) أو بـ (إلى)، ونصبه المفعول نادر [1].

نكتةُ فصل جملة: ﴿إِن يَشَأۡ يَرۡحَمۡكُمۡ﴾ عمّا قبلها:

علمُ اللهِ بمَن يستحقُّ الرَّحمةَ أو العذابَ

ورد قوله تعالى: ﴿إِن يَشَأۡ يَرۡحَمۡكُمۡ﴾ مَفْصولًا عن الجملة قبلها: ﴿رَّبُّكُمۡ أَعۡلَمُ بِكُمۡۖ﴾؛ لوجود كمال الاتِّصال بينهما، وهو اتِّحاد الجملتيْن اتِّحادًا تامًّا وامتزاجًا معنويًّا، بحيث تُنزَّل الثّانية من الأولى منزلةَ نفسها[2]؛ فقد وقعت جُمْلَةُ: ﴿إِن يَشَأۡ يَرۡحَمۡكُمۡ أَوۡ إِن يَشَأۡ يُعَذِّبۡكُمۡۚ﴾ مُفسِّرةً ومُبيِّنة للمقصود من جملة: ﴿رَّبُّكُمۡ أَعۡلَمُ بِكُمۡۖ﴾[3].

المقصودُ بالخطابِ في الآية:

تردُّد المعنى بين خطاب المؤمنين أو خطاب الكافرين

اختلف المُفسِّرون في المخاطَب بقوله تعالى: ﴿رَّبُّكُمۡ أَعۡلَمُ بِكُمۡۖ إِن يَشَأۡ يَرۡحَمۡكُمۡ أَوۡ إِن يَشَأۡ يُعَذِّبۡكُمۡۚ﴾؛ تبعًا لخلافهم في المقصود من قوله: ﴿وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُواْ ٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ﴾؛ فقيل: المُراد به: المؤمنون، فعلى هذا التَّقدير فقوله: ﴿رَّبُّكُمۡ أَعۡلَمُ بِكُمۡۖ﴾ خطاب للمؤمنين؛ والمعنى: إن يشأ يرحمكم، والمُراد بتلك الرحمة: الإنجاءُ من كفّار مكَّة وأذاهم، أو إن يشأ يعذبكم بتسليطهم عليكم، ثم قال: وما أرسلناك ـ يا محمد ـ عليهم وكيلًا؛ أيْ: حافظًا وكفيلًا، فاشتغِل أنت بالدعوة، ولا شيء عليك من كفرهم، فإن شاء الله هدايتهم هداهم، وإلّا فلا.

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8أ/ 30.
(2) القزويني، الإيضاح: 3/ 108.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 134.

وقيل إنَّ المراد من قوله: ﴿وَقُل لِّعِبَادِى﴾ هم الكفّار؛ وذلك لأنَّ المقصود من هذه الآيات الدعوة، فلا يبعد في مثل هذا الموضع أن يُخاطَبوا بالخطاب الحَسَن؛ ليصير ذلك سببًا لجذب قلوبهم ومَيْل طباعهم إلى قبول الدين الحق[1].

معنى ﴿إن﴾ وسرُّ التَّعبير بها دون (إذا):

عـدم الـجـزم بـمـصـير أيِّ إنسان

جاء في قوله تعالى: ﴿رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ ۖ إِن يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِن يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ ۚ﴾ اسْتِعْمالُ حرف الشَّرط الجازم ﴿إن﴾ دون (إذا)؛ لنكتة بلاغية، وهي أنَّ ﴿إن﴾ يَرِد عمومًا في المعاني المحتملة الوقوع، والمشكوك في حصولها، والموهومة والنّادرة والمستحيلة، وسائر الافتراضات الأخرى، أو ما تُنزَّل هذه المنزلة؛ خروجًا عن مقتضى الظّاهر دون مقتضى الحال، وأمّا (إذا) فيُستعمل عندما يكون الشرط فيها مقطوعًا بوقوعه[2].

فلمّا كان سياق الآية الإخبار بعدم القطع بمصير أيِّ عبدٍ لا إلى جنَّةٍ ولا إلى نارٍ؛ ناسَبَه التَّعبير بـ﴿إن﴾ المُفيدة لاحتمال الوقوع، وهو أدلُّ على المَعْنى من: (إذا شاء الله)؛ لأنَّ ﴿إن﴾ تُعلِّقُ وُقوعَ الأمرِ بمشيئةِ الله، فقد يشاء ﷻ تحقُّق الأمر، وقد يشاء غير ذلك، وذلك بحسب المصلحة التي يعلمها الله ﷻ وحده، وهو أعلم بما ينفعُ النَّاس، أمَّا لو قيل: (إذا شاء الله)؛ فكأنَّه جزمٌ بأنَّ الله ﷻ سيشاءُ، وفي ذلِكَ مُخالفَةٌ صريحةٌ للمقصود.

نكتة التَّعبير بفعل المشيئة بالمضارعيَّة:

مـشـيـئـةُ الـلـه قـديـمـةُ الـنَّـوع متجدِّدةُ الآحادِ

في قوله تعالى: ﴿رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ ۖ إِن يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِن يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ ۚ﴾ استُعمل فعل المشيئة بصيغة المضارع؛ وذلك لأنَّ المُضارِع يُفيد افتراضَ تجدُّد الفعل واستمراره، فصفة مشيئة الله عند

(1) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 20/ 355.
(2) فاضل السَّامرّائيّ، معاني النحو: 4/ 69.

أهل السُّنَّة والجماعة قديمة النَّوع مُتجدِّدة الآحاد، فالله ﷻ كلَّ يوم في شأن، فيقضي ما يشاء في عباده من مقادير، والله ﷻ لم يزل، ولا يزال، يفعل ما يشاء، ويتكلَّم إذا يشاء، قال تعالى: ﴿قَالَ كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفۡعَلُ مَا يَشَآءُ ۝٤٠﴾ [آل عمران: 40][1]، كما يُستفاد من صيغة المضارع: الاستقبال، وهو مناسب لما يقوله المُفسِّرون من أنَّ الرحمة المذكورة والعذاب سيكونان يوم القيامة في الجنَّة أو النّار، ولهذا عبَّر بالاستقبال.

فائدة التَّعبير بالجملة الشَّرطيَّة:

ارتباط الرّحمة والعذاب بمشيئة ربِّ الأرباب

ورد في قوله تعالى: ﴿إِن يَشَأۡ يَرۡحَمۡكُمۡ أَوۡ إِن يَشَأۡ يُعَذِّبۡكُمۡۚ﴾ التَّعبير بالجملة الشَّرطيَّة؛ لأنَّ معنى الشرط أن يتوقَّف وقوع الثاني على وقوع الأول، فإذا وقع الأول؛ وقع الثاني، وكذلك في هذه الآية فإنَّ نزول الرحمة أو العذاب موقوف على مشيئة الله ﷻ وحده، وقد تكرَّر كثيرًا في القرآن الكريم ربط الرَّحمة والعذاب بمشيئة الله، نحو: ﴿يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَرۡحَمُ مَن يَشَآءُۖ وَإِلَيۡهِ تُقۡلَبُونَ ۝٢١﴾ [العنكبوت: 21].

نكتة حذف فاعل ﴿يَشَأۡ﴾:

الإضمارُ في موضعِ الإظهارِ لتفادي التَّكرار

أتى الفاعل في قوله تعالى: ﴿إِن يَشَأۡ يَرۡحَمۡكُمۡ﴾ ضميرًا مستترًا عائِدًا إلى الرَّبِّ ﷻ دون الاسم الظاهر تفاديًا للتَّكرار، فقد تقدَّم ذِكْر اسم الله في قوله: ﴿رَّبُّكُمۡ أَعۡلَمُ بِكُمۡۖ﴾ في الآية نفسها، وكذلك فإنَّه لـمَّا كان معلومًا أنَّ مشيئة الرَّحمة أو العذاب لا تكون إلّا لله ﷻ؛ أيْ: إنَّ ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن؛ جازَ عدم ذِكْر الفاعل ثقة في ظهوره، والبلاغةُ الإيجازُ.

غرضُ حذفِ مفعولِ المشيئةِ:

للإيجازِ ولدلالةِ جوابِ الشّرطِ عليه

جاء في قوله تعالى: ﴿إِن يَشَأۡ يَرۡحَمۡكُمۡ أَوۡ إِن يَشَأۡ يُعَذِّبۡكُمۡۚ﴾

(1) ابن أبي العزّ، شرح الطحاوية، ص: 85.

استعمالُ فعل المشيئة في سياق الشَّرط دون ذكر مفعوله، والنُّكتةُ في ذلك أنَّ شأن فعل المشيئة والإرادة ونحوهما إذا وقع متَّصلًا بما يصلح لأن يدلَّ على مفعوله؛ حُذِفَ المفعول، مثل وقوعه صلة لموصول يحتاج إلى خبر نحو: ما شاء اللّٰه كان؛ أيّ: ما شاء كونه كان؛ لظهور أنَّ الجواب هو دليل المفعول[1]، وكذلك في هذه الآية؛ فمفعول فعل المشيئة محذوفٌ؛ لأنَّ المُراد منه ما يساوي مضمون جواب الشرط، فحُذِفَ إيجازًا، والتقدير: (إن يشأ رحمتَكم يرحمكم، أو إن يشأ تعذيبَكم يعذبكم)[2]، إلّا أنَّ البلاغة في أن يُجاء به محذوفًا؛ لما فيه من دقيق الصَّنعة ومن جليل الفائدة، فهو إضمارٌ على شريطة التفسير، فيُعطي هذا الحذفُ النَّظمَ حُسنًا وغرابة، وذلك أنَّ في البيان إذا ورد بعد الإبهام وبعد التحريك له لطفًا ونبلًا لا يكون إذا لم يتقدَّم ما يحرِّك، فمتى علَّق المتكلِّم أمرًا بمشيئة علم السامع أنَّه يعلِّق هذه المشيئة في المعنى بشيء، فهو يضع في نفسه أنَّ ههنا شيئًا تقتضي مشيئته له أن يكون، أو ألّا يكون، غير أنَّه لا يظهر؛ لأنَّ الواجب في حكم البلاغة ألّا ينطق بالمفعول به المحذوف، وألّا يظهر في السياق، ومتى ظهر؛ صار الكلام غثًّا يمجُّه السَّمع، وتعافه النفس[3].

الموقع النَّحويُّ لقوله: ﴿يَرْحَمْكُمْ﴾ ودلالته:

أتى الفعل ﴿يَرْحَمْكُمْ﴾ في قوله تعالى: ﴿إِن يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ﴾ جواب شرط لفعل الشرط، وهو ﴿يَشَأْ﴾؛ فإنَّ الرحمة موقوفة على مشيئة اللّٰه ﷻ وحده.

الرَّحمة موقوفة على مشيئة الله ﷻ وحده

معنى ﴿أَوْ﴾ في الآية:

ورد في قوله تعالى: ﴿إِن يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِن يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ﴾

الرّحمة والتّعذيب لا يجتمعان على العباد

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/ 321.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 134.
(3) الجُرجاني، دلائل الإعجاز: 1/ 163.

استعمال حرف العطف ﴿أَوۡ﴾ الدَّالِّ على أحد الشّيئَيْن؛ لأنَّ الرّحمة والتّعذيب لا يجتمعان، فمجيئها هنا للتّقسيم[1].

نكتةُ تكرار التَّعبير بـ﴿يَشَأۡ﴾ وجوابه:

تجدُّدُ الفعل، ودلالته على الدَّوام والاستقبال

في قوله تعالى: ﴿رَّبُّكُمۡ أَعۡلَمُ بِكُمۡۖ إِن يَشَأۡ يَرۡحَمۡكُمۡ أَوۡ إِن يَشَأۡ يُعَذِّبۡكُمۡۚ﴾ ورد التَّعبير عن فعل الشرط والجزاء بصيغة المضارع؛ وذلك لأنَّ المُضارِع يُفيدُ افْتِراض تجدُّد الفعل واستمراره، كما يُفيد الاستقبال، فالرَّحمةُ والعذاب سيكونان يوم القيامة في الجنَّة أو النّار، ولهذا عبَّر عنهما بالاستقبال.

الموقع النَّحويُّ لقوله: ﴿يُعَذِّبۡكُمۡۚ﴾ ودلالته:

العذابُ موقوفٌ على مشيئة الله ﷻ وحده

ورد في قوله تعالى: ﴿أَوۡ إِن يَشَأۡ يُعَذِّبۡكُمۡۚ﴾ الفعل ﴿يُعَذِّبۡكُمۡۚ﴾ جواب شرط لفعل الشرط، وهو ﴿يَشَأۡ﴾؛ فإنَّ العذاب موقوفٌ على مشيئة اللّه ﷻ وحده.

فائدةُ إعادة شرط المشيئة:

عدم القطع لمعيَّن بجنَّة أو نار

أُعيد شرط المشيئة في قوله تعالى: ﴿رَّبُّكُمۡ أَعۡلَمُ بِكُمۡۖ إِن يَشَأۡ يَرۡحَمۡكُمۡ أَوۡ إِن يَشَأۡ يُعَذِّبۡكُمۡۚ﴾ في الجملة المعطوفة لتأكيد أنَّ كلًّا من الرَّحمة والعذاب لا يكونان إلّا بمشيئة اللّه، فدخول الجنَّة أو النّار موقوفٌ على مشيئة اللّه وحده، ولا يمكن القطع لأيٍّ مخلوق بهما، فهما من خصائص الرُّبوبية.

سرُّ التَّعبيرِ عن الهدايةِ والضَّلالِ بالرَّحمةِ والعذابِ:

الاهتداء سبب للرّحمة، والضّلال سبب للعذاب

في قوله تعالى: ﴿رَّبُّكُمۡ أَعۡلَمُ بِكُمۡۖ إِن يَشَأۡ يَرۡحَمۡكُمۡ أَوۡ إِن يَشَأۡ يُعَذِّبۡكُمۡۚ﴾ صورةٌ بيانية بديعة، حيث ذَكَرَ اللّه تعالى الرَّحمة والتَّعذيب، وكنّى بهما عن الاهتداء والضَّلال؛ بقرينة مقارنته لقوله: ﴿رَّبُّكُمۡ أَعۡلَمُ بِكُمۡۖ﴾ الذي هو كالمقدمة، وسلك سبيل الكناية بهما

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 134.

لإفادة فائدتيْن: صريحهما وكنايتهما، ولإظهار أنَّه لا يُسأل عمّا يفعل؛ لأنَّه أعلم بما يليق بأحوال مخلوقاته، فلمّا ناط الرحمة بأسبابها والعذابَ بأسبابه، بحكمته وعدله؛ عُلِمَ أنَّ معنى مشيئته الرحمة أو التعذيب هو مشيئةُ إيجاد أسبابهما، وفعل الشرط محذوف، والتَّقدير: (إن يشأ رحمتَكم يرحمْكم، أو إن يشأ تعذيبَكم يُعذِّبْكم)، على حُكم حذف مفعول فعل المشيئة في الاستعمال[1].

نكتة تقديم مشيئة الرَّحمة على مشيئة العذاب:

رحمة الله سبقت غضبه

ورد في قوله تعالى: ﴿رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْۖ إِن يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِن يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْۚ﴾ تقديمُ مشيئة الرَّحمة على مشيئة العذاب؛ وذلك موافق لما ورد في حديث أبي هريرة ﷺ أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: "إنَّ الله كَتَبَ كِتابًا قَبْلَ أنْ يَخْلُقَ الخَلْقَ: إنَّ رَحْمَتي سَبَقَتْ غَضَبِي، فَهو مَكْتُوبٌ عِنْدَهُ فَوْقَ العَرْشِ"[2]، وكذلك فإنَّ الربَّ تعالى تَسمّى بالغفور الرحيم، ولم يَتسمَّ بالمُعذِّب ولا بالمعاقِب؛ بل جعل العذابَ والعقابَ في أفعاله، كما قال تعالى: ﴿*نَبِّئْ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ ﴿٥٠﴾﴾ [الحِجْر: 49 - 50] وهو كثير في القرآن الكريم.

وكذلك بالنسبة لأهل النّار، فإنَّ رحمته فيهم سبقت غضبه، فإنَّه رحمهم أنواعًا من الرحمة قبل أن يغضبوه بشركهم، ورحمهم في حال شركهم، ورحمهم بإقامة الحجَّة عليهم، ورحمهم بدعوتهم إليه بعد أن أغضبوه، وآذَوا رسله، وكذَّبوهم، وأمهلهم، ولم يعاجلهم بل وسعتهم رحمته[3].

بلاغةُ الطِّباقِ بين الرَّحمةِ والعذاب:

توضيحُ المعنى بجمعِ اللفظِ وضدِّهِ

في قوله تعالى: ﴿إِن يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِن يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْۚ﴾ طباقٌ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 134.
(2) مُتفقٌ عليه، رواه البخاري (7554)، ومسلم (2751).
(3) القمّاش، مصباح التفاسير: 7/ 645.

بديع بين لفظي ﴿يَرْحَمْكُمْ﴾، و﴿يُعَذِّبْكُمْ﴾، وهو مُحسِّنٌ معنويٌّ، فبين تقابُلِ الرَّحمة والعذاب وتخالفِهما تضادٌّ يُروِّع النَّفس، ويُثير الذِّهن، ويجذب الانتباه، ويزيد الكلام حُسنًا وطرافة، كما يُقوّي المعنى؛ إذ بضدِّها تتمايز الأشياءُ.

معنى الواو في قوله: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ﴾:

بيانُ الهدايةِ والضَّلال من الله، أو تقريرُ رفع الحرج عن الرّسول الكريم

وُصِلت جملة: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا﴾ في الآية الكريمة بما قبلها بحرف الواو العاطفة؛ لزيادة بيان أنَّ الهداية والضَّلال من الله تعالى، وأن النَّبيَّ ﷺ غير مسؤول عن استمرار مَن استمرَّ في الضَّلالة، أو أنَّ الواوَ استئنافية[1]؛ لتقرير إزالة الحرج عنه فيما يجده من عدم اهتداء مَن يدعوهم؛ أيْ: ما أرسلناك لتُجبرهم على الإيمان؛ وإنَّما أرسلناك داعيًا[2].

معنى حرفِ النَّفي (ما):

المبالغةُ في توكيدِ مُهمَّةِ الرسولِ بالتبليغِ

جاء النَّفي في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا﴾ بِحَرْفِ (ما) النّافية، لتأكيد أنَّ الهداية والضَّلال من تقدير الله تعالى وحده، وأنَّ الرَّسول لا أثر له في ذلك سوى التَّبليغ، وكلّما كان السِّياقُ القرآنيُّ يحتاج إلى مبالغةٍ في توكيد النَّفي؛ جيء به منفيًّا بـ (ما) النّافية؛ لما تتميَّز به عن سائر حروف النَّفي من خصائص: كنفي الحال، ونفي الجنس مُتَّصلة بمنفيِّها أو منفصلة عنه، واقتران اسمها بـ (من) الزائدة الدَّالَّة على الاستغراق والتّوكيد[3].

بلاغةُ الالتفاتِ من الغَيْبةِ إلى التكلّمِ:

رسولُ الرَّبِّ العظيمِ عظيمٌ كريمٌ

ورد في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا﴾ الالتفات من ضمير الغيْبة في الجمل السّابقة في قوله تعالى: ﴿رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ

(1) دعّاس، إعراب القرآن: 2/ 194.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 135.
(3) فاضل السّامرّائيّ، معاني النحو: 1/ 253.

إِن يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِن يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ﴾ إلى ضمير التكلُّم في قوله: ﴿أَرْسَلْنَاكَ﴾؛ لأنَّه خطاب للنبيِّ ﷺ، تسليةً له عن كفر قومه، وخُفِّف عنه بأنَّ وظيفته البلاغ لا الهداية، ودلَّت نون المعظِّم نفسه سبحانه أنَّ النَّبيَّ ﷺ مرسل من عظيم، ورسول العظيم عظيم.

نكتةُ تعدية فعل الإرسال بـ(على):

وظيفةُ الرَّسول التبليغ لا المغالبة على الإيمان

في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا﴾ أتى الفعل (أرسل) متعدّيًا بـ (على) دون (إلى)؛ لتضمُّنه معنى الغلبة والسُّلطة، فالنبيُّ لم يُرسل لإكراه النّاس وإرغامهم على الهداية ومنعهم من التَّكذيب، فهو نظير قوله تعالى: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُواْ فَمَآ أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًاۖ إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُۗ﴾ [الشورى: 48] (1)، وقوله: ﴿۞لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُۗ﴾ [البقرة: 272].

سرُّ تقديم شبه الجملة: ﴿عَلَيْهِمْ﴾:

الاهتمام بقوم النَّبيِّ ﷺ

تقدَّم شبه الجملة ﴿عَلَيْهِمْ﴾ على متعلقها ﴿وَكِيلًا﴾ في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا﴾، والنُّكتةُ في تقديمه الاهتمامُ بقوم النَّبيِّ ﷺ، إضافة إلى رعاية الفاصلة (2).

الموقعُ النَّحويُّ لـ﴿وَكِيلًا﴾ ودلالته:

هدايةُ القلوب بيد الله تعالى وحده

لفظُ ﴿وَكِيلًا﴾ في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا﴾ جاء حالًا من كاف ﴿أَرْسَلْنَاكَ﴾، وهو فعيل بمعنى مفعول؛ أيْ: موكولًا إليك أمرهم، فتحاول هدايتهم(3).

نكتةُ تنكير ﴿وَكِيلًا﴾:

بيانُ أصل الحال، وقَصْدُ الإبْهام والتَّعْظيم

ورد في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا﴾ لفظ ﴿وَكِيلًا﴾ منكَّرًا، والغرضُ البلاغيُّ من التَّنكير فيه هو قَصْدُ الإبْهام

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/ 287.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 135.
(3) درويش، إعراب القرآن: 5/ 459.

والتَّعْظيم، إضافةً إلى أنَّ الأصلَ في الحال أن يكون نكِرةً، كما هو مُقرَّرٌ في علم النَّحو.

فائدةُ الخبر: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ وَكِيلٗا﴾:

تضمَّن قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ وَكِيلٗا﴾ خبرًا للنَّبيِّ صلّى عليه وسلَّم فائدته: ما أنت بوكيل منّا عليهم، أو: ما أنت بوكيلٍ منهم على تحصيل نفعهم كإيفاء الوكيل بما وكَّله عليه مُوكِّله، وهذا استيعابٌ لنفي أسباب التَّبِعَة عنه في عدم إيمانهم، فلا تبعةَ عليك - أيُّها الرسول - منهم ولا تقصير؛ لانتفاء سبب التَّقصير، إذ ليس مقامك مقام وكيل، فالخبر أيضًا مُستعمَلٌ في التَّذكير بلازِمِه، لا في حقيقته من إفادة المُخبَرِ به، وعلى كلا المعنيَيْن لا بدَّ من تقدير مُضافٍ في قوله: عليهم؛ أيْ: على نفعهم.

استيعابُ نفي أسباب التَّبعة عنه في عدم إيمانهم

والغرض منه تسليةُ النَّبيِّ ﷺ؛ ليُزيح عنه كَرْبَ إعراضهم عن الإسلام؛ لأنَّ ما يحصل له من الكَدَر لإعراض قومه عن الإسلام يجعل في نفسه انكسارًا، كأنَّه انكسار مَن عُهِدَ إليه بعملٍ فلم يتسنَّ له ما يُريده من حُسن القيام، فذكَّره الله تعالى بأنَّه قد أدَّى الأمانة، وبلَّغ الرِّسالة، وأنَّه لم يبعثه مُكرِهًا لهم ليأتي بهم مسلمين؛ وإنَّما بعثه مُبلِّغًا لرسالته؛ فمن آمن فلنفسه، ومن كفر فعليها[1].

تسلية النبي ﷺ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 07/ 426.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الثامن والعشرون،
سورة الإسراء من الآية 06 إلى الآية 77
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1446هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الثامن والعشرون، سورة الإسراء من الآية 06 إلى الآية 77
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 28 ، 808 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-768-25-8
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 28 : المجلد الثامن والعشرون، سورة الإسراء من الآية 06 إلى الآية 77.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-768-25-8
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-9844230 بتاريخ 2024/11/05م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»